Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٤، شتاء ١٤٣٧ هـ
صفحة ٥٧٥ – ٥٩٥

ملامح الرومنسية في شعر ابن الرومي

محمود حيدري[١]*، حسين قائمي أصل[٢]

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ياسوج

٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة ياسوج

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٩/١٣ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٢/٢)

الملخّص

نعني بالمدرسة الرومنطيقية وملامحها مدرسة وجدانية غنائية أعلنت حربا عوانا ضد الكلاسيكيين وتغنّوا عن آلامهم وأحاسيسهم نتيجة خيبة آمالهم في المجتمع ورؤية ما لم يوافق وآرائهم. هذا المقال امتداد لقراءات جديدة في التراث الشعري العربي ويسعى أن يلتمس بعض خصائص الحركة الرومنطيقية في الأدب العربي القديم، فلهذا يرى أنّ ابن الرومي أقرب الشعراء العرب القدامى إلى المدرسة الرومنطيقية. تكمن أهمّية هذا البحث في الكشف عن جذور المدارس الأدبية الحديثة في الأدب العربي القديم؛ واعتمادا على المنهج الوصفي التحليلي، وصل البحث إلى هذه النتيجة أنّ ظاهرة الرومنسية ليست ظاهرة جديدة على الأدب العربي؛ بل هذه المدرسة الحديثة لها آثارها الواضحة في التراث العربي القديم وإن كانت التسمية جديدة؛ فللنموذج أنّ الظروف الاجتماعية التي حدت ابن الرومي إلى الشعر الرومنسي هي في الغالب نفس الظروف التي كانت سائدة على مجتمع الرومانسيين الجدد مثل الفشل في الحب والفرار عن عسف المجتمع. ومن النتائج الأخرى لهذه الدراسة هي تبيين مظاهر الرومنطيقية في شعر ابن الرومي، التي تتجلّى في اللجوء إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتعبير عن الأحزان والهموم والوحشة والإنفراد وكلّ هذا صدى لنفسية الشاعر المتبرّمة من الناس والمجتمع والفرار منهم ويُعدُّ من أبرز ميزات شعره التي تتناسب والحركة الرومنطيقية الحديثة. وأخيرا تشير الدراسة إلى أنّ الشعر العربي القديم بحاجة ماسّة إلى قراءات جديدة تواكب هذا الشعر مع المعطيات النقدية الجديدة مادام لم تخرج هذه القراءات عن جادّة الصواب.

الكلمات الرئيسة

الرومنطيقية، ابن الرومي، شعر الطبيعة، الشعر الوجداني.

---

* الكاتب المسؤول Email: mahmoodhaidari@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

إنّ قراءة التراث من منظار النقد الجديد تعطينا فكرة جديدة عن رؤيتنا إلى المناهج النقدية الحديثة وتصف أبعاد العلاقة التي تربط القاريء المعاصر بالتراث العربي. ندرك أهمية الموضوع عندما يقول الناقد جابر عصفور «وبقدر ما كنت أدرك أنّ الإلحاح على قراءة التراث هو الوجه الآخر من الإلحاح على قراءة الواقع أو الحاضر، فقد كنت أزداد اقتناعا أنّه لا توجد قراءة بريئة أو محايدة للتراث» (عصفور، ١٩٩١: ٥).

بالنسبة إلى الرومنسية في التراث العربي؛ فقد أشار النقاد إلى أنّ الشعر العربي وجداني المنزع ولهذا كان أكثره ذا طابع رومنسي. يرى إحسان عبّاس أنّ العصر الأموي أوضح العصور رومنطيقية لكثرة الشعراء البكائين والغزليين العذريين (عباس، ١٩٩٥: ٥٠). ويعتقد إيليا الحاوي أنّ روح الشعر كانت في الغالب روحا رومنسية؛ بمعنى أنّ الإنفعال كان يزخر فيه وكانت التجارب في معظمها تجربة رومنسية خالصة (الحاوي، ١٩٩٨: ١١١). وعلى حدّ قول آخر فإنّ المدرسة الرومنطيقية طريقة الأدب العربي ومدرسته الكبرى (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٤).

من بين هؤلاء الأعلام الذين شعرهم بصلة على هذه المدرسة الرومنطيقية هو ابن الرومي الشاعر العباسي العملاق، الذي أحبّ الطبيعة وقدّسها والتجأ إليها وسكب نزعاته وروحه عليها ورسم لنا لوحات رائعة وخالدة بقوّة خياله حيث نلمس بعض السمات الرومنسية جلية في أشعاره حتى قيل بأنّه أحسّ بروح الطبيعة أكثر من سواه (الحاوي، ١٩٩٨: ١٢٢). ويقرنه بعض النقاد بشعراء الرومانسية الذين انحرفوا عن المدرسة الكلاسيكية وهرعوا إلى الطبيعة، قائلا إنّ «ابن الرومي أقرب شعرائنا القدامى إلى واقع المدرسة الرومنطيقية الحديثة، وإن كان من اختلاف بينه وبينهم» (الحرّ، ١٩٩٢: ١٠١).

في هذا المقال نبدأ بحديثنا عن المدرسة الرومنطيقية وسماتها ثمّ نشير إشارة وجيزة إلى حياة شاعرنا لكي نلمّ على جوانب من حياته أثّرت على رومنطيقيته وأخيرا نبحث عن الملامح الرومنسية في شعره ممثّلة في هذه المحاور الخمسة؛ ١. الطبيعة واللجوء إليها والإمتزاج بها ٢. التعبير عن الأحزان والهموم ٣. الوحدة والإنفراد والدخول في عالم الذات والإعتزال عن الحياة ٤. الحبّ ٥. التخييل باعتباره أقوى سمات الرومنسيين.

www.SID.ir

Archive of SID

أسئلة البحث:

هذا البحث يتمحور حول عدة أسئلة رئيسية ومن أهمّها:

- هل يمكن إقامة علاقة بين شعر ابن الرومي في وصف الطبيعة وملامح المدرسة الرومنطيقية الحديثة؟

- ما هو أهمّ الميزات التي جعلت وصف الطبيعة عند ابن الرومي في قمة الشعر العربي الذي وصل إلينا حول وصف الطبيعة؟

- كيف يساعدنا قراءة الشعر العربي القديم من منظار النقد المعاصر على فهم المعانى الجديدة للبنية الشعرية التحتية؟

أهداف البحث:

إنّ الهدف الرئيسي في هذا المقال هو وضع منهج جديد أمام قارئ الشعر العربي وقد جعلنا شعر الطبيعة عند ابن الرومي كنموذج لهذا المنهج؛ وللوصول إلى هذا الهدف اخترنا المدرسة الرومنطيقية وأهمّ أسسها إطاراً عامّا شاملاً للبحث حتى نبيّن معان جديدة في شعر ابن الرومي.

خلفية البحث:

هناك بحوث عدّة درست شخصية الشاعر وشعره من زوايا مختلفة مثلما فعلت مرضيه آباد (١٣٩٣هـ) ودرست «الموسيقى الداخلية في شعر ابن الرومي» و«مظاهر الفكر في شعر ابن الرومي» (١٣٩٢هـ) وكتبت كبرى روشنفكر ودانش محمدي (١٣٩١هـ) مقالة عنوانها «قصيده ابن الرومي في رثاء ولده؛ دراسه دلاليه» وكتب علي پيراني شال وجواد پناهي (١٣٩٤هـ) «الشخصيه الكاريكاتيريه عند ابن الرومي» ولكن ممّا كتب في هذا المجال والذي له صلة ببحثنا، مقال كتبته الباحثة كبرى روشنفكر (١٣٨٩هـ) عنوانه «الطبيعة الحية في شعر ابن الرومي» في مجلة العلوم الإنسانية ودرست الباحثة فيه شعر الطبيعة ومظاهرها في شعر الشاعر. كما أنّه لإيليا الحاوي كتاب حول ابن الرومي، أشار فيه إلى طبيعة الشاعر الرومنسية وهناك مقال آخر عنوانه المدينة الفاضلة في مدائح ابن الرومي؛ (١٣٨٩هـ) «جامعه آرماني با تكيه بر مدائح ابن رومي» الذي درس الكتّاب المدينة الفاضلة في مدائح الشاعر. إضافة الى ما ذكرناه، هناك بعض الكتب المؤلفة حول ابن الرومي ودراسة شعره في

www.SID.ir

Archive of SID

أغراضه العامّة وتحليلها من مواقف شتى وقد أشرنا إلى كل ذلك في فهرس المصادر ولكن ما يميّز هذه المقالة هي رؤيتها الحديثة إلى شعر ابن الرومي من منظار نقدى معاصر وهذا هو ما لم نجده في الدراسات السابقة.

لمحة عن حياة ابن الرومي وشعره

من الضروري أن نقدّم هنا بعض المعلومات الهامّة حول ملامح شخصية ابن الرومي وأحداث حياته بأسلوب سهل موجز يخدم بحثنا عن خصائص شعره الوجداني كما جعلناه تمهيداً للدخول في صلب المقالة. فقد ولد ابن الرومي من أب يوناني وأم فارسية ولكنّ الشاعر لم يكد يعرف والده، إذ يبدو أنه توفّي وهو طفل (الحاوي، ١٩٨٦: ٩). ثمّ فجع بموت أمه وموت أخيه الوحيد وهكذا «توالت المصائب والفجائع الكثيرة على الشاعر فيبدو أن القدر لم يدعه واختطف أعزائه عليه واحداً تلو الآخر فالشاعر كانت له أخت ماتت قبل أمه» (العقاد، ١٩٦٨: ٩٣؛ الحاوي، ١٩٥٩: ٣١). فقد رزق ابن الرومي ثلاثة أبناء ماتوا جميعهم في حياته ورثاهم الشاعر رثاء حاراً وما لبث حتى لحقت زوجته بأبنائه (العقاد، ١٩٦٨: ٩٥-٩٩). يبدو أن ابن الرومي لم يتزوّج بعد فقده زوجته وأبنائه بل عاش منفرداً حتى «مات مسموماً على يد وزير المعتضد» (ابن خلكان، ١٩٧٠: ٣٦١/٣). هذه المآسي التي لازمت ابن الرومي طوال حياته كانت ذا أثر بالغ في تغيير مزاجه وأخلاقه ممّا جعله يعيش منفردا، باكيا، شاكيا.

إضافة إلى ما حلّ بالشاعر من المصائب والنكبات فإنّه كان يعاني أيضا من بعض الصفات الجسمانية، فهكذا وصفه المؤرّخون بأنّه "كان صغير الرأس مستدير أعلاه، أبيض الوجه، يخالط لونه شحوب في بعض الأحيان... وبادر اليه الصلع والشيب في شبابه. وأدركته الشيخوخة الباكرة، فاعتلّ جسمه وضعف نظره وسمعه ولم يكن قوي البنية في شباب ولا شيخوخة... وكان إذا مشى اختلج في مشيته، ولاح للناظر كأنّه يدور على نفسه أو يغربل لاختلال اعصابه وإضطراب أعضائه" (العقاد، ١٩٦٨: ١١٤).

هذه الصفات الجسمانية والذاتية اللتين ذكرناهما بالإيجاز كان لهما أثر مدهش في شعر ابن الرومي وقد تغلّب على شعره سمات من تلك النفسية، ومن ثمّ أبدع الشاعر في قصائده الوصفية كما أنّ في الوقت نفسه خلق شعراً وجدانياً رائعاً.

كان ابن الرومي شديد النفور من الحياة والمجتمع لأنّه قد عاش في عصر كلّه دسائس ومؤامرات ومخاطر، لا بقاء فيه إلا للقوي ولم يكن بإمكانه أن يلائم هذا المجتمع ويصانع مع

www.SID.ir

Archive of SID

أهله. ولم يكن حظّ ابن الرومي عند الحكّام والممدوحين بأحسن من حظّه عند القضاء والقدر ولم يرَ منهم إلا الجفاء والإعراض وقصّروا في عطائه فثارت ثائرته:

أيستُ من دهري ومن أهلِه فليس منهم أحدٌ يرضَى

إن رمتُ مدحاً لم أجِد أهلَهُ أو رمتُ هجواً لم أجِد عرضا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٤٢١/٤)

وشعر باليأس والإحباط فلذا يشكو من دهره ومن أناس لا يقدّرونه حقّ تقديره:

دهرٌ علا قدرُ الوضيعِ بهِ وهوى الشريف يحطّهُ شرفُه

كالبحرِ يرسبُ فيهِ لؤلؤُه سفلا وتطفو فوقَهُ جيفُه

(ابن الرومي، ١٩٧٤، ١٥٧١/٤)

«ومن الغريب أنّ ابن الرومي لم يكن يستطيع أن يبقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير، فقد كان يكفي كلّ منهما الاّ ينفذ إليه الجائزة أو يطلّ منها، فإذا هو خصم لدود، وإذا هو يسُلُّ لسانه عليه يبري شعره سهاماً مُدمية» (ضيف، ١٩٩٦: ٣٥٠)، وكثيرا يشعر بالغبن ويرى نفسه مضيعا في زمانه:

أتُراني دونَ الأولى بلغوا الآ مالَ من شرطةٍ ومِن كُتّابِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٨٢/١)

وأخيرا نشير إلى فشله في حبّه ونفور الحسناوات والحبيبات عنه لدمامة وجهه وفقره ومن أبرز هؤلاء هي "وحيد" المغنّية التي تيمت الشاعرَ بحبّها:

يا خليليَّ تيمَتني وحيدُ ففُؤادي بها معنّيً عميدُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٧٦٢/٢)

فحظّه منها البكاء والسهران بينما حظّ الآخرين الوصل والإلتذاذ:

حظُّ غيري من وصلِكم قرّةُ العيـ ـنِ وحظّي البُكاءُ والتَّسهيدُ

المدرسة الرومنطيقية

ظهر مصطلح "الرومنطيقية" في النصف الثاني من القرن السابع عشر في الإنكلترا والفرنسة وكان يومئذ مصطلحا سخريّا يطلق على كلّ شيء "غير حقيقي" أو "عجيب" أو "خياليّ غارق

www.SID.ir

Archive of SID

في الخيال" أو "الشعوري" (ولك، ١٣٧٣: ١٩). ثمّ أطلقت هذه التسمية على نهج جيل من الأدباء الذين ظهروا حوالي عام ١٨٢٠م بفرنسا الذين جدّدوا الأدب بلون من الكلام الوجداني الغنائي. واتخذت الرومنطيقية شكلا حادّا عنيفا فأعلنت "حرية الفنّ" وجاهرت بالعداء للأدب الكلاسيكي وحمل لواء الحرب الشاعر "فكتور هوغو" والناقد "سنت بيف" (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٧). والمراد من "الحركة الرومنطيقية" كلّ شعر يريد الشاعر فيه التغنّي بالآلام والأفراح وسائر ما يعتلج فيه من الأحاسيس أو بعبارة أخرى، تصوير العاطفة كما تتردّد في النفس. فنستطيع أن نقول أنّ مادة الأدب الرومنطيقي حساسية الأديب وأحداث جرت له في الحياة وصدى هذه الأحداث. وبحكم هذه الثورة الرومنسية على الأوضاع السائدة في المجتمع من عسف وظلم وقهر، اتّخذت الحركة منحى تصحيحيا لوضع المجتمع ومحاولة التخلّص من الآفات التي سيطرت على هذا المجتمع وهو ما دفع شعراء الإتجاه الرومنسي إلى الانتفاضة العنيفة على الأوضاع الفاسدة السائدة (أبوالشباب، ١٩٨٨: ١٩٧). ولمّا لم يكن التغيير بإمكانهم وفشلوا في ثورتهم، شرع الشعراء يتغنّون بآلامهم وحزنهم.

أمّا ما هي ميزات الرومنطيقية؟ نأتي بالإختصار أهمّ خصائص هذه المدرسة، أولا: الشعر عند الرومنسيين تعبير عن العواطف والوجدان عموما والمذهب وجداني مئة بالمئة وقوامه عاطفة الأديب. فالأدب الرومنطيقي أدب غنائي لأنّ أدبائه يتغنّون بأحاسيسهم حيال الطبيعة والموت والحب... على نحو شامل بحيث يجد القاريء فيها متعة ولذة ومن هنا أطلقوا على الأدب الرومنطيقي بالعربية الأدب الغنائي كما أطلقوا عليه الأدب الوجداني. ثانيا: صبّ الخيال على مشاهد الطبيعة ومعالم الشعوب وعادات الماضي. ثالثا: انطواء هذا المذهب على روح التمرّد والكره للأوضاع القائمة والسنن الجارية وهذا طبيعي من أناس يقيمون وزنا لأنفسهم ويحترمون شعورهم (فيصل، ١٣٦٥: ٧٤٩-٧٥١).

إضافة إلى هذا قد عرف من الرومانتيكيين حبّهم للوحدة ورغبتهم في ترك المدن والفرار إلى الطبيعة بما فيها من حقول وبحار وجبال، بعيدا عن مشكلات المجتمع وهمومه وحروبه وفي الغالب كانوا يتناولون من الطبيعة مناظرها الكئيبة التي تتلاءم مع أحاسيسهم ومع حالاتهم ويتحدثون عن الذبول والمرض والفناء وتلبّد السماء بالغيوم والقمر الشاحب والليالي المظمة وغيرها من مظاهر الطبيعة. خلاصة القول؛ أنّ الرومنسية تعبير عن ذات الأديب ونوازعه وعوالمه الذاتية وليست محاكاة لعالم المثل، أو عالم الطبيعة أو تعبيرا عن المجتمع وقوانينه.

www.SID.ir

Archive of SID

الملامح الرومنسية في شعر ابن الرومي

بعد هذه المقدّمات نشير إلى مظاهر رومنسية توجد في ديوان الشاعر بارزة وهي اللجوء إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتشوق إليها والشعور بالأحزان والآلام والوحشة والإنفراد والتعبير عنها والحبّ والعاطفة الجياشة والتخييل ونأتي بكلّ منها بشيء من التفصيل.

الطبيعة والامتزاج بها والتشوّق إليها:

لا يحب الرومانسيون الطبيعة فحسب بل يعدّونها صديقة لهم تشاركهم مشاركة روحية وقلبية ونفس الشاعر الرومنسي في صراعها مع الواقعية تعاني من البعد بين العالم الواقعي والعالم المنشود فلهذا تكون الدعوة إلى الطبيعة مسعى حثيث للإبتعاد عن هذا العالم (بلاطة، ١٩٦٠: ٥٦-٥٧). وفي الحقيقة ثورة على القيود والتقاليد والظلم. كان ابن الرومي قد أحبّ الطبيعة وعشقها كما عشق محبوبة (انظر: الحاوي، ١٩٥٩: ٣٤). ومنحها الحياة شأن الرومانسيين، فهي عنده كائن حي يحبّها ويناجي معها ويلتجأ إليها، لمّا بلغت همومه وأحزانه في الحياة إلى ذروتها وتبرّم من الناس والمجتمع فنرى الشاعر نفسه يصرّح أيضا بأنّ الطبيعة عنده من الأشياء التي ينكشف بها الهموم ويسلو بها أحزانه قائلا:

ثَلاثَــةُ أشْــياء بِهــا الْهَــمُّ يكشَــفُ تَميـلُ إليهـا الـنَّفْسُ منّـي وتُصْـرَفُ

شَــرابٌ وبُســتانٌ وقَطْــرُ سَــحابَةٍ إذا قَطَـرَتْ أنواؤُهـا لـيس تُخْلـفُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٦٢٦/٤)

والشاعر وجد في الطبيعة ملجئا بعيداً عن الناس الذين يتبرّم منهم وليس هذا التبرّم وليد ظلم النّاس عليه فحسب، بل له جذور أيضاً في نفسية الشاعر الذي ثقلت عليه الهموم والآلام التي أشرنا سابقا إليها؛ فاللجوء إلى الطبيعة في شعره يتفاوت بقدر كبير عن الشعراء االآخرين «والواقع إنّنا نكاد لا نشهد شاعراً من شعراء العرب انصرف إلى وصف الطبيعة انصراف ابن الرومي وهذه الظاهرة ليست وليدة الصّدفة والعرض، وإنما تنطوي على دلالة نفسية عميقة. فالشاعر بعد أن يئس من الحياة وفشل في اكتساب جاهها ومالها ورفعة شأنها وبعد أن توالت عليه النكبات توحّد وابتعد عن المجتمع كرهاً وتخلصاً من وطأته وتعقيده» (الحاوي، ١٩٨٦: ٢٣/١). ويشير أيضا في مقطوعة أخرى إلى لجوئه إلى الطبيعة عندما زاحمته الهموم:

www.SID.ir

Archive of SID

ومُونَقَـــةِ الـــرُّوّادِ، مُهتـــزّةِ الـــرّبى يحاسِـــنُها ســـارٍ وغـــادٍ ورائـــحُ
تُضـــاحِك نُـــوّاراً بهـــا زَهَراتُهـــا لهـــا أرَجٌ في نـــافِحِ القَطْـــرِ نـــافِحُ
إذا مَـــدّها المَهْمُـــومُ في صُعدائِـــهِ إلى قلبـــه انســـاحَتْ عليـــه الجـــوانحُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٥٢١/٢)

فابن الرومي يصف في هذه الأبيات روضة يرتادها ذووالنعمة المترفون قائلا إنّ مطر الليل ومطر الصباح فضلا عن مطر العشي، يحاسنها ويخصبها فتنمي أزهارها التي تتلألأ وتتألّق فكأنّها تضحك ويتضوّع منها عطر يخالط رائحة المطر حتّى أنّها إذا ما أدركت أحشاء صاحب الهموم ـ ومن البديهي أنّ هذا المهموم هو ابن الرومي ولا غير ـ ذاب وجداً وتطيباً لها.

فقد تعرّض الشاعر في قصيدة "غروب الشمس" مشهد صيد الطيور مع أصدقائه ويقول:

وَجَـدّت قَسـي القَـومِ فِـي الطَّـيرِ جَـدَّها فظَلَّـــت سُـــجُودا لِلرُّمـــاةِ ورُكعـــا
هُنالَـك تَلقَـي الطّـيرُ مَـا طَـيرتْ بـه علَـى كـلِّ شـعبٍ جـامِعٍ فَتَصَدّعـا
لهـا عَولَـةٌ أولـى بهـا مـا تُصيبُـه وأجـدرُ بـالإعوالِ مَـن كـانَ موجَعـا
وَمـــا ذاك إلا زَجرُهـــا لِبَناتـــها مَخافـةَ أن يـذهبنَ فِـي الجـوِّ ضُيّـعا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٤٧٤/٤)

يصف الشاعر في هذه الأبيات مشهد اصطياد الطيور بادئاً بذكر الصيادين الذين رموا بسهامهم الطيور ويشبّه سقوط الطيور بحالة الركوع والسجود فأصبحت شملة الطيور متفرّقة ثمّ يتابع قوله بوصف أصوات هذه الطيور ويعبّر عنها بـالإعوال ويدّعي أنّ الطيور كانت تعول لأفراخها حتى لا تقع الأفراخ في فخاخ الصيادين.

انتقل الشاعر في هذا النص الشعري من الوصف الخارجي إلى حالة نفسية داخلية فانقلبت رحلة الصيد عنده إلى مشهد فاجع ينقل إلينا رموزاً من المعاني الإنسانية في مثل قوله "تَلَقى الطّيرُ مَا طيرت به" إشارة إلى فكرة التطير في بوارح الطير وتفرق الجمع لما فيها من نحس وشؤم وهذه فكرة طالما رافقت شاعرنا ابن الرومي أو في قوله "وأجدَرُ بالإعوالِ مَن كانَ مُوجعا" مشيرا إلى مأساة إنسان ألمت به المصائب، فالأقدار تفعل بالإنسان مثل ما يفعل الصائد بالطير أو في ما يقول "وما ذاك إلا زجرُها لبناتها" فهذا كلام لا يقدر على الإتيان بمثله إلا من فجع بموت أولاده وهذا هو ابن الرومي بلا شك.

www.SID.ir

Archive of SID

وابن الرومي ممن تعلّق بالطبيعة ووجد فيها بديلا عن المجتمع الفاسد بكلّ ما فيه أدران ويرى فيها مصدر الوحي ونقاء النفس واندماجه بها وليد فشله في المجتمع والنكبات التي توالت عليه في الحياة.

الوحشة والانفراد:

«إن ما أصاب ابن الرومي من تنكر مجتمعه والعمل على قهره وإعناته كان يمكن أن يدفعه إلى اعتزال الحياة والإنكباب على نفسه، كاتما آلامه» (سعفان، ١٩٨٣: ٤٤). فلهذا يفضّل العزلة على مجالسة الأشرار والأحباب جميعا:

ذقتُ الطعومَ فما التذذتُ بِراحةٍ ... مِن صُحبةِ الأخيارِ والأشرارِ

أمّا الصَّديقُ فَلا أحِبُّ لقاءَهُ ... حَذرَ القِلى وكِراهةَ الإغوارِ

وأرَى العَدوَّ قَذى فَأكرَهُ قرنَهُ ... فَهجرتُ هذا الخلقَ عَن أعذارِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٠٣٨/٣)

فيرى الزهد والإعتزال خيراً من معاشرة الناس جميعا:

بلوتُ طعومَ الناسِ حتّى لو أنّني ... وجدتُهمُ أحلى مذاقاً مِنَ الشّهدِ

لَقد آنَ أن أسلاهمُ وأملّهُم ... فكيفَ وما لاقيتُ منهم أخا رُشدِ

وكيفَ وقد جرّبتُ من طبقاتهم ... تجاريبَ تدعُو النّفسَ فيهِم إلى الزهد

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦١٠/٢)

لأن الشعور السائد عند الرومنتيكي نتيجة لرهف إحساسه بظلم المجتمع وقيوده هو ولوعه باعتزال الناس (هلال،لاتا: ٥٤) وعندما يرثى ولده يرى ابنه الميت ونفسه سيان في الوحشة والإنفراد، قائلا: « أنا في وحشة هذه الدنيا وأنت في وحشة القبر» :

وأنتَ وإن أُفردتَ في دارِ وحشةٍ ... فإنّي بِدارِ الأنسِ في وَحشةِ الفردِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤م: ٦٢٧/٢)

أمّا اندماج نفسه الوحيدة بالطبيعة والإمتزاج بها ورسم لوحات وجدانية وصفية عن نفسه الحزينة فواضحة في وصفه الطيور حيث يصوّر أصوات الحمائم المختلفة التي تتغني بين باكيات وشاديات:

www.SID.ir

Archive of SID

تَتَـــداعي بهـــا حَمَـــائمُ شَـــتّى كـــالبَوَاكي وكالقِيـــانِ الشّـــوادي
مِـــنْ مَثـــانٍ مُمَتّعـــاتٍ قِـــرانٍ وفِـــرادٍ مُفَجّعـــاتٍ وحـــادِ
تَـــتَغني القِـــرانُ منـــهنّ في الأيـــ ـــك وتَبْكـــي الفِـــرادُ شَـــجْوَ الفِـــرادِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢/٦٨٣-٦٨٤)

أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن وأمّا الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين وكأنما يبكين الإنفراد وهذه الحمائم الفراد ليست إلا نفسه المكبوتة والشاعر تجاوز عن هذا المظهر العادي المتشابه وعلّق عليه واقعا جديدا من واقعه الخاص، فجعل الفريدة من الحمائم تبكي انفرادها كما يبكي هو وحشتَه وجعل الحمائم القران تطرب وتنعم بالمتعة التي يتحسّر عليها في انفراده.

فمثل هذا القول فد تكرّر في قصيدة أخرى وكلّما سنحت للشاعر فرصة يغتنمها ويشكو من وحشته وانفراده بامتزاجه بالطبيعة فنرى غلبة جو حزين على القصيدة ينبع من نفسية ابن الرومي الحزينة وتبعد أشعاره عن الوصف المجرّد للطبيعة وربّما خرج كأنّه أراد بهذه الأبيات التعبير عن مصائبه التي حلّت به دون وصف الروضة والطائر ونراه واصفا في الأبيات التالية حماماً وهديلاً وقفا على غصن شجرة:

يدعُـــو الحَمَـــامُ بهـــا الهـــديلَ تاسّـــياً وتباريـــاً فـــوقَ الغصـــونِ المُـــيسِ
فمُفَجّـــعٌ خلـــجَ الفـــراقُ قرينَـــه وممتّـــعٌ بـــقرينِه لَـــم يبـــأسِ
فكـــأنَّ لـــذةَ صَوتـــهِ ودَبيبـــَها ســـنةٌ تمشّـــي فـــي مفاصـــلِ نُعّـــس

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٣/١٢٣٠)

فقد وصف الشاعر مشهد الطيور في الطبيعة قائلا إنّ الحمام على الغصون المائلة يدعو الهديل كأنّه يريد أن يتأسي بها على همومه ثمّ يخيل في نفسه أنّ الطيور المغرّدة في الروضة تنقسم إلى قسمَين: بعضها حمائم قران تطرب وتشدو وبعضها فراد تتألم وتبكي من الحزن لانفرادها؛ فتلك الأولى تتغنّي من الفرح وسط شملها غناء يأنس اليه ويرقّ له القلوب أمّا تلك الثانية فحزينة منفردة نلمس الحزن من صوته الخفيف الذي من الصعب أن يصل إلى الآذان. ثم يذكر الشاعر لنا أنّه استأنس بهذا الصوت الحزين حيث يدبّ في عظامه دبيب النوم في مفاصل مَن أخذه الكرى. من البديهي أن هديل الحمائم لا يدل على البكاء ولا على الطرب، فهذا المعنى ينبع من نفسية الشاعر ويخيل أن الفريدة من هذه الحمائم تبكي من

www.SID.ir

Archive of SID

انفرادها والقرينة منها تطرب وتفرح والشاعر يأنس بأصوات تلك الحمائم الحزينة بالطبيعة إذ وجد فيها لذة تسرّبت إلى عظامه فهو في الحقيقة بهذه الأبيات يصف نفسه وحالته في المجتمع الإنساني ويتحسّر على ما افتقده في حياته وفي ذلك إنعكاس للحياة التي عاشها وحيدا بعد فقده لزوجته كما تحسّر على أيام شبابه في البيت الأخير، التحسّر على فقده علقاً نفيساً لا شيء يعادله.

الشعور بالحزن والألم والتعبير عنهما:

من الظروف المهيئة للنزعة الرومنسية عند ابن الرومي ذالك الحزن الذي تولد نتيجة للإحباط والفشل في بلوغه إلى آماله عند المدوحين ولهذا نمت نبتة الحزن والتشاءوم واليأس في شعره. وهذه النزعة الرومنسية تتدفّق في ابداع الشاعر نغما حزينا وفكرا متشائما نتيجة المرارة والخيبة وإذا جال الحزن في نفس الشاعر بدت منه على الكون غشاوة والوجود كلّه مكتئب:

وَأظلَمَتِ الدُّنيا وباخَ ضياءُها نهاراً وشمسُ الصَّحوِ حَيرَى علَى القِمَم

وأبدَى اكتئاباً كلُّ شيءٍ علمتُه وَأضعافُ ما أبداهُ مِن ذاكَ ما كَتَم

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦/٢٣١١)

لأنّ حيرة الشمس في الحقيقة حيرة ذات الشاعر وقد ارتسمت على محيا الشمس ثم عرف أنه هو الحزن الدخيل وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال:

كذاكَ أرَى الأشياءَ إمّا حَقيقةً بَدَت لي وإمّا حُلمَ مُستَيقظٍ حَلَم

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦/٢٣١١)

نعود مرة أخرى إلى قصيدة وصف غروب الشمس التي تعتبر من عيون القصائد العربية. قام الشاعر فيها بوصف رحلة مع أصدقائه في أحضان الطبيعة وفي مقطع من هذه القصيدة ينتقل إلى وصف شمس الأصيل وحزنُ الشاعر وآلامه واضحة المعالم:

وقد رنّقتْ شمسُ الأصيلِ ونقّضَتْ على الأُفُقِ الغربيِّ وَرْساً مُزَعْزَعا

وَوَدّعتِ الدّنيا لِتَقضِي نَحْبَهَا وشَوَّل باقي عمرِها فَتَشَعْشَعا

ولاحظتِ النُّوارَ وهي مريضةٌ وقد وضعتْ خدا إلى الأرضِ أضْرَعا

www.SID.ir

Archive of SID

كمـــا لاحظـــتْ عـــوّادَه عـــينُ مُـــدْنَفٍ تَوَجّـــعَ مِـــنْ أوْصـــابِه مـــا تَوجَّعَـــا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١٤٧٣/٤)

يصوّر الشاعر وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأحمر الشبيه بنبات الورس وأشعتها تتبدّد إلا بقايا قليلة فهي توشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة مودّعة الدنيا وهي تنظر إلى الكون نظر المريض الذي أثقله الوجع إلى عوّاده وتضع خدّها على الأرض إيذانا بالفراق وأمّا عيون الزهر المخضلّة بالنّدى فقد أصبحت مغرورقة تدمع وترنو إلى الشمس بألحاظ خاشعة فكأنّ الزهر والشمس هما صديقان تودّعا وحزنا من الفراق.

إذا القينا الأضواء على خلفيات المعاني الوصفية في هذه المقطوعة رأينا أنّ الشاعر يسجّل مواقف انسانية خاصة في أشعاره فهو يصف غروب الشمس وليس هذا الغروب عنده عادياً بل هو حالة الموت ووداع الدنيا فالشمس تضع خدها على الأرض وبهذا الوصف أعطى الشمس شعوراً انسانياً كما أنّ الأزهار هي عوّادها التي حزنت من فراقها وملئت عيونها بالدمع فهذا مشهد فراق الأحبّة وليس مشهد غروب الشمس والعبارات والأوصاف حزينة ومن هنا خيم على القصيدة جو حزين.

وقد بقيت نكتة علينا أخذها بعين الاعتبار وهو أنّ ابن الرومي أقبل إلى الصيد والتفرّج فكان من المتوقّع أن يذكر مثل هذه الرحلة بأشياء أخرى مثل الفرحة والخمر والنزهة ومتعة السرور ولكنّ الأمر كان على العكس فهو لا يرى القطرات المنحدرة على الأزهار دراً منثورة شأن من سبقه من الشعراء بل يشبّهها بدمع العيون ويستدلّ بها على الأزهار الباكية:

وظلّـتْ عُيـون النَّـور تخضـلُّ بالنـدى كمـا اغْرَوْرَقَـتْ عـينُ الشَّـجِّي لِتَـدْمَعَا

كما أنّ الشاعر قد خلق مشهداً جميلا نفسانياً في البيت السادس حين يقوم بتصوير إنحناء الأزهار المائلة ويفسّر هذا الإنحناء نتيجة للحزن في فراق الشمس ويبثّ في النبات المشاعر الإنسانية:

يراعينُهـــا صُـــورا إليهـــا رَوانيـــاً ويلْحَظْـنَ ألْحاظـاً مِـنَ الشّـجْوِ خُشّـعا

وبَـــيّنَ إغضـــاءُ الفـــراقِ عليهمـــا كأنهمـــا خِـــلّا صفـــاءٍ تودّعـــا

وجدير بالذكر أنّ التعبير عن هذه اللوعة ظهر مرّات عديدة في قصائده الوصفية الأخرى مثل هذه الأبيات التي اخترناها من قصيدة طويلة للشاعر:

www.SID.ir

Archive of SID

تُـــذكرني الشَّـــبابَ جنـــانُ عَـــدنٍ عَلَـــى جَنَبَـــات أنهـــارٍ عِـــذابِ
يـــذكرُني الشَّـــبابَ ريـــاضُ حـــزنٍ ترنّـــمَ بَينَهـــا زُرقُ الذُّبـــابِ
يـــذكرُني الشَّـــبابَ وَمـــيضُ بَـــرقٍ وَسَـــجعُ حَمامَـــةٍ وحَـــنينُ نـــابِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٥٧/١)

والروضة والأنهار العذبة لا تثير في الشاعر بهجة ولا سروراً بل تذكره بالشباب المملوء بالحزن كما أنّ البرق وسجع الحمامة و... تثير في نفسه الحنين إلى أيام ذلك الشباب.

المرأة والحبّ:

يقرن الشاعر الرومنسي الحبَّ بكلّ معاني السذاجة والبراءة والطهر والوفاء لكنّهم بالغوا في رفع الحبيبة حتى بلغت مصافّ الآلهة لدى بعضهم ونسبوا إليها صفات روحية كادت تنفي تجسدها في اللحم والدم واستعاروا أجمل ما في الطبيعة لوصف محاسنها.(بلاطة، ١٩٦٠م: ٦٤) والمعاناة في طلب المحبوب أصبحت هدفا وغاية وكثيرا ما يجأر بالشكوى:

شـــكوتُ إلى بَـــدري هَـــوايَ فقـــالَ لي ألســتَ تَـرَى بـدرَ السَّـماءِ الّـذي يَسـرِي
فقُلـــتُ بلـــى قـــالَ التَمســـهُ فإنّـــه نَظـــيري وشِـــبهي في عُلُـــوّي وفي قَـــدري
فَكـــانَ كِـــلا البَـــدرَينِ صَـــعبا مَرامُـــهُ لي الويـلُ مِـن بـدرِ السَّـماءِ ومِـن بَـدرِي

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ١١١٦/٣)

ومن أجمل القصائد التي تصوّر هيام الشاعر ولوعة حبّه، قصيدة "وحيد المغنّية" التي "تجمع كثيرا من خصائص ابن الرومي في الغزل والنسيب والوصف والتحليل فهي من أجل ذلك وجدانية خالصة وتكشف عن كثير من نواحي خيبته في الحياة" (فروخ، ١٩٤٩: ٤١). ويشبّهها بالظبية والقمرية لجمال عيونها وصوتها وكأنّ الحسنَ أشعل ناره فيها:

أوقـــدَ الحســـنُ نـــارَه في وحيـــدِ فـــوقَ خـــدٍّ مـــا شـــانَه تَخديـــدُ
ظبيـــةٌ تســـكنُ القلـــوبَ وتَـــر عاهـــا وقُمريّـــةٌ لهـــا تغريـــدُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٧٦٣/٢)

والشاعر يعاني ممّا يكون الحبّ أثقل عليه ويطلب من يعينه في حبّه مثلما فعلت نفسه للعشّاق:

www.SID.ir

Archive of SID

قَـد كُنـتُ أبكـي لأصـحابِ الهَـوى زَمَنـا فَهَـل لي الأنَ مِـن بـاكٍ فَيَبكـيني

أ هَكـذا يجـدُ العشـاقُ كلُّهُـم يـا رَحمتـاً لِلمُحـبِّينَ المسـاكينِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦/٢٥٤٧)

إن الرومانسيين قد ارتفعوا بالحب إلى درجة التقديس والعبادة وارتفعوا به عن النزوات والدوافع الحسية وطبيعي أن تحتلّ المرأة مكانة رفيعة لديهم فصارت ملاكا نزل من السماء لينقي النفوس ويطهّرها (هلال، د.ت: ١٧٠-١٧١). ومن طريف قول الشاعر في الحبّ ما يريد فيه أن يمتزج روح العاشقين ولا يشفي غلّته معانقة الجسمين وهذا يدلّ على عظم شأن الحبّ والمحبوب لدى الشاعر:

أعانقُهـا والـنَّفسُ بعـدُ مَشـوقةٌ إليهـا وهَـل بَعـدَ العِنـاقِ تَـداني

وألـثُمُ فاهـا كَـي تمـوتَ حَـزازتي فَيشـتَدُّ مَـا ألقَـي مِـن الهَيمـانِ

وَمـا كـانَ مقـدارُ الّـذي بي مِـن الجَـوى لِيشـفيهِ مَـا تَرشـفُ الشَّـفتانِ

كـأنَّ فُـؤادي لـيسَ يَشـفِي غَليلُـه سِـوى أن يَـرَى الـرُّوحَينِ يَمتَزجـانِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦/٢٤٧٥)

وهكذا عُلِّقَ على هذه الأبيات قائلا «بيد أنّ هذا النوع من الغزل الصادق والحبّ المتيم يفسّر المتعة الحسية المتجلببة صوفية الزاهدين المنجذبين إلى حبّ علوي ينأى بالجسد ويتّصل بالجوهر الإنساني الطاهر الخالد، المنبثق في تعبير امتزاج الحبيبين داخل وحدة روحية لا انفصام لها» (الحرّ، ١٩٩٢: ١٩٦).

ويتكرّر نفس المعنى في قول آخر وما أشبه بقول الشعراء الصّوفيين عندما يرى شفاء نفسه في امتزاج الروحين ويزداد شوقه عند رؤيتها، ويموت من أجلها لو ابتعدت عنه:

أرَاهَـا فـأزدادُ شـوقاً وصـبوةً وإن نزَحَـت فَـالموتُ دونَ نُزوحِهـا

فَلـيسَ شِـفاءُ الـنَّفسِ ممّـا أحبَّـه لِعفـراءَ إلا لَـزَّ رُوحِـي بِروحِهـا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢/٥٤٠)

وفي سياق آخر، امتزج الشاعر بين مظاهر الطبيعة والمرأة امتزاجاً يصوّر لنا لواعج قلبه الذي عاش منفرداً معوزاً بين هؤلاء الموسرين وجواريهم ببغداد ولم تسمح له دميمة وجهه من

www.SID.ir

Archive of SID

جانب وفقره من جانب آخر، حتى يشبع نهمته مما يرى أمام عينيه لأن الشاعر كان يعيش في وسط مجتمع عباسي فيه ما فيه من الجاريات والمطربات والفاتنات، لكنّه يبدو في عوزه وتهالك صحته وكأنّه يعجز عن تحقيق أمنيته بهن، وظلت المرأة ظماً دائماً في نفسه لم يستطع إرواءه، حتى إذا برّحت به الأشواق تحوّلت تلك الحسرة إلى الطبيعة فالتبست فيها، لذلك عمد إلى مناجاة الطبيعة يتودّد إليها ويبثّها أشواقه وحنينه ولواعج قلبه المتيم» (كاظم حطيط، ١٩٨٧: ٢٩٢). وهذا الذي نراه في وصف الطبيعة عند ابن الرومي ليس في الواقع سوى تحوّل نفسي لفتاة الحب في ذاته العاشقة وهكذا يصف الشاعر المرأة مستمداً في التشابيه والإستعارات من أوصاف الطبيعة ويستخدم هذا الأوصاف إستخداماً يصعب على القارئ التميز بين موضوع الأشعار فهل كانت قصائد الشاعر في وصف المرأة أم وصف لمشهد في الطبيعة:

رُمّانُ عَدنٍ وأعنابٌ مُهدَّلةً ... وأقحُوانٌ يُسقّي الراحَ رفافا

ويانعاً مِن جَني العُنّابِ يَتبَعُه ... قلبُ المودَّعِ تَذكاراً وتأسافا

أسرى بأنواعِ ريحانٍ وفاكهةٍ ... يأبينَ قَطفاً وإن خُيلنَ إقطافا

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٤/١٦٠٠)

والشاعر سلك مسلك القدامى في هذه التشابيه والإستعارات ولكن قد زين هذه التشابيه بمصطلحات جديدة مثل "يأبين قطفا" فهذا المصطلح يخبرنا عن لوعة الشاعر للنساء وقد ذكرنا لكم سابقا أن دميمة وجه الشاعر وهزاله و...، كل هذه الخصائص الجسمانية جعلت النساء ينبذن ابن الرومي ولعل حسرة الشاعر على عدم وصوله للنساء بلغ إلى ذروتها بحيث يتبع قلب الشاعر الذي ودّعته الحسناوات الذكريات ويذكّرهنّ ويأسف لفقدهنّ.

ومن ملامح الإمتزاج بين الطبيعة والمرأة كثيرة وتتردّد في غير مكان من ديوان الشاعر وواضح مما قدمنا إن الإمتزاج بين الطبيعة والمرأة عند الشاعر يعود في كثير من جوانبه إلى شخصية الشاعر اذ يئس من المجتمع ـ وأيضا من الوصول إلى آماله ـ فتحول إلى الطبيعة يشكو اليها وعلى هذه الشاكلة اقترن وصف الطبيعة عند ابن الرومي بوصف المرأة ولكن هذا الوصف يختلف عما قرأناه عند الشعراء الآخرين؛ إذ ليس فيه كلام عن اللهو واللعب والتمتع بل يركز الشاعر الحديث على التأسف والفشل.

في قصيدة أخرى قد بدأ الشاعر بأسلوب التجريد واستعار الفاظ الطبيعة للنساء: أغصان الأشجار للقدود والتفاح للخدود و... وشبّه أيضاً الشعور المسترسلة بالأعناب المهدّلة في لونها

www.SID.ir

Archive of SID

الأسود كما شبّه أطراف أصابعها بالعناب في الإحمرار فهي تشبه غصوناً قد ظهرت عليها الثمار المختلفة ولكنها تختلف عن ثمار الأشجار فهي ليست في أكمتها زهرات وأنوار بل فيها الفرح والمتعة أو الحزن والبؤس:

أجنَـت لـك الوجـد أغصـانٌ وكثبـانٌ ... فـيهنَّ نوعـانِ تفّـاحٌ ورمّـانُ

وفـوقَ ذينـك أعنـابٌ مُهَدّلـةٌ ... سُـودٌ لهـن مـن الظلمـاء ألـوان

وتحـتَ هاتيـك أعنـابٌ تلـوعُ بـه ... أطـرافُهن قلـوبُ القـومِ قِنـوانُ

غصـونُ بـانٍ عليهـا الـدهرَ فاكهـةٌ ... ومـا الفواكـهُ ممّـا يحمـلُ البـانُ

تلـك الغصـونُ اللـواتي في أكمَّتِهـا ... نُعْـمٌ وبُـؤْسٌ وأفـراحٌ وأحـزان

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٤١٨/٦)

يكفي لنا أن نتأمل في بعض المصطلحات التي نقرأها في هذه الأبيات حتى ندرك موقف ابن الرومي من النساء؛ فإنه حريص على وصول النساء وبه ظمأ شديد لهن وهذا ما نفهمه من قوله "أطرافهن قلوبُ القوم قِنوانٌ" فلا شك في أن لفظ "القوم" هو ابن الرومي نفسه ولاغير فصوّر تغلغله النفسي بمثل هذه القصائد « ومن أسباب اندفاعه إلى الطبيعة هي التنفيس عن آلامه وضيقه وبديل عن المجتمع الفاسد واعتبارها هي المرأة التي افتقدها والحنين إلى الصدق والطهارة والبساطة» (كبريت، ٢٠٠١: ١٨). ويرى الأرض المزيّنة كفتاة تتبختر في ثيابها الفاخرة:

ورِيـاضٍ تَخَايـلُ الأرضُ فيهـا ... خُـيلاء الفتـاةِ في الأبْـرادِ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٦٨٣/٢)

الطبيعة شديدة الصلة بالحبّ عند الشاعر الرومنطيقي، فهي ملاذ الشاعر البائس. لقد امتزجت نفسية ابن الرومي بنفسية الطبيعة فلقي بين أحضانها كل ما حرمته الحياة إياه، إن عالم الطبيعة في شرعه هو عالم الإنسان لذلك كان يضفي عليه حالاته الداخلية ويحمله ما يزخر به وجدانه من انفعالات (روشنفكر، ١٣٨٩: ٧٢). ونرى كيف وجد حبه في حضن الطبيعة وأعطاها شعورا إنسانيا.

بغضّ النظر عن الجمال الوصفي في الأبيات وتلك المزاوجة الجميلة بين الألفاظ والصور النفسية، نستنبط بالوضوح أنّ المعنى الشعري في هذه الأبيات تبدي لنا أنّ فكرة ابن الرومي

www.SID.ir

Archive of SID

حول المرأة فقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بشعره في وصف الطبيعة وحينما نتأمل قليلاً نجد أن هناك نوعاً من العلائق النفسانية الوجدانية غلب على هذه الفكرة وهي وجدانية انسان قانط قد فشل في آماله فأينما يتوجّه لم يلبث حتى مرّت بذهنه فالشاعر كان ينظر إلى النساء ـ وأيضاً إلى الطبيعة ـ بنافذة واحدة ولعل هذا هو سرّ التماثل بين الطبيعة والنساء عند ابن الرومي و«الوجدانية تنصهر وأحاسيس ابن الرومي في قلب الطبيعة وكان إذا لجأ إليها بأشجانه وهمومه وأحزانه، تستجيب له وتبادله الأشجان بالجداول المتفجّرة والهموم بالسواقي الملتوية وهذه الرومنطيقية المبكّرة في شعره هي التي ظهرت عند الرومنطيقيين الغربيين أمثال "كيتس" و"وردر وورث" و"روسو" وبين كل هذا يجد ضالته المنشودة على شكل فتاة ارتدت الغلائل الموشاة أو على شكل عشيقة تزينت وتبرّجت للقاء عشيقها كيما تغويه (الحر، ١٩٩٢: ٩٨-١٠١).

التخييل

كان التخييل عند الرومنسيين ذا قيمة بالغة وذا شأن كبير بحيث يعدّ ركنا لا يستطيع الشاعر أن يقول شعرا دونه (باوره، ١٣٧٣: ٥٦). ويقال إن القطعة الشعرية لها حقيقة رمزية، لا حقيقة إخبارية وما يخلقه التخييل، يرتبط بتجربة الشاعر الشعرية الحيّة وينعكس الحقائق الوجدانية (باوره، ١٣٧٣: ٦٠). يعتقد "بليك" الشاعر الإنجليزي بأنّ التخييل هو الذي يخلق الواقعية (باوره، ١٣٧٣: ٧١). ويؤكّد "شلي" على أنّ وظيفة التخييل، خلق الأشكال والتصاوير التي تظهر الواقعية من خلالها (باوره، ١٣٧٣: ٧٥). ومن هنا نفهم شأن التخييل عند الرومنسيين وإذا قارنّا ما عند ابن الرومي من التخييلات التي توضّح لنا نفسية الشاعر وواقعية حياته ندرك مدى رومنسية الشاعر العبّاسي.

ونستفيد ممّا أتينا بنماذج آنفا ونحللها ثانية لنبيّن سعة خيال الشاعر. أراد ابن الرومي في واقعه أين يلتقي بفتاة حبّه وهي مزيّنة متبرّجة له ولكن كما قلنا سابقا إنّ النساء يطردنه ويرفضن حبّه ولهذا حلّ الخيال محلّ الواقع فيرى حبيبته متبخترة في الألبسة القشيبة:

ورِيـــاضٍ تَخَايـــلُ الأرضُ فيهـــا خُـــيلاء الفتـــاةِ في الأبْـــرادِ

أو يراها ممثّلة في الأرض بمختلف ألوانها في فصل الربيع، ويذكّره هذا المشهد الربيعي بعد زوال الشتاء بحبيبة تبرّجت وزيّنت نفسها لفتاها معرضةً عنها:

تبرّجَـــت بعـــدَ حيـــاءٍ وخَفَـــر تـــبرّجَ الأنثـــى تَصـــدَّت للـــذّكَر

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٩٩٣/٣)

www.SID.ir

Archive of SID

كانت نتيجة طبيعية لانطواء الرومنتيكي على نفسه وطغيان شعوره وعاطفته أن يضيق ذرعا بعالم الحقيقة فيطلق لنفسه العنان في الأحلام ووجد في هذا الإنطلاق اشباعا لآماله غير المحدودة فصار عالم خياله أحبّ إليه من عالم الحقيقة المحدود (هلال، د.ت: ٦٤). وما أجمل انطلاقه في خياله عندما يرى نفسه الوحيدة الحزينة في حمام وحيد يبكي لفقد حبيبته وقد شُرحت الأبيات سابقا:

تَتَداعي بها حَمَائمُ شَتّى ... كالبَوَاكي وكالقِيانِ الشّوادي

مِنْ مَثانٍ مُمَتّعاتٍ قِرانٍ ... وفِرادٍ مُفَجّعاتٍ وحادِ

تَتَغني القِرانُ منهنّ في الأيـ ... ـك وتَبْكي الفِرادُ شَجْوَ الفِرادِ

والشاعر يتحسّر على الحمائم الممتّعات بقرينهنّ ويتمنّي أن تكون نفسه إحداهنّ. كان واسع الخيال، قويّ الشعور وله قدرة كبيرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر وهكذا وصفوه بأنّه «كان قويّ الخيال جداً وكان خياله بعيداً ليس بالقريب، وكان حادّ الحس جداً. وكان قوي الشعور، كان إذا المّ بمعنى من المعاني تأثّر به تأثّرا واضحاً» (حسين، ١٩٧١: ٣٧٨/٢). وهكذا فالخيال في اتجاهاته المختلفة استعاضة عمّا يريد الرومنتيكيون الحصول عليه حقيقة (هلال، د.ت: ٦٤).

ولكن لا يلبث الشاعر الرومنتيكي أن يفيق من حلمه على الحقيقة فيشعر بلذعة هذه اليقظة كأنّه يفقد أمله من جديد كلّما رجع من خياله ويتضاعف الشعور بالألم كلما استغرق في خياله. فلنعد مرّة أخرى إلى قصيدة ذكرناها سابقا وقد استعار الشاعر مظاهر الطبيعة لفتاته وامتزج بين الطبيعة ومحاسن الحبيبة ولكن في مواصلة خياله كأنّه استيقظ منه، نراه واصفا النساء بالغدر والخيانة بعد أن شبّههنّ بالأشياء الموجودة في الطبيعة وهن عنده كالبساتين؛ تكتسي ألواناً من الزهر حين الوعود ثم يعري حيناً آخر:

تلك الغصونُ اللواتي في أكمَّتِها ... نُعْمٌ وبُؤْسٌ وأفراحٌ وأحزان

ولا يدُمنَ على عهدٍ لمَعْتَقدٍ ... أني وهنّ كما شُبِّهنَ بستانُ

يميلُ طوراً بحمْلٍ ثم يعْدِمُهُ ... ويكتسي ثم يلفي وهو عريان

حالاً فحالاً كذا النسوان قاطبةً ... نواكثٌ دينهن الدهرَ أديانُ

(ابن الرومي، ١٩٧٤: ٢٤١٨/٦)

www.SID.ir

Archive of SID

النتائج

يمكن لنا أن نلخّص نتائج البحث فيما يلي:

- ليست ظاهرة الرومنسية ظاهرة جديدة على الأدب العربي وهذه المدرسة الحديثة لها آثارها الواضحة في التراث العربي القديم وإن كانت التسمية جديدة.
- من أبرز ملامح الرومنسية في شعر ابن الرومي لجوئه إلى الطبيعة والإمتزاج بها والتشوق إليها وبثّ شكواه عند اشتداد الأحزان والهموم؛ فهو في هذه القصائد أشبه بالرومنسيين الكبار الجدد.
- الظروف الاجتماعية التي حدت ابن الرومي إلى الشعر الرومنسي هي في الغالب نفس الظروف التي كانت سائدة على مجتمع الرومانسيين الجدد مثل الفشل في الحب، والفرار عن عسف المجتمع.
- إنّ ابن الرومي عند وصفه للطبيعة في الحقيقة يصف نفسه وحالته في المجتمع الإنساني ويتحسّر على ما افتقده في حياته وفي ذلك إنعكاس للحياة التي عاشها وحيدا بعد فقده لزوجته.
- من الظروف المهيئة للنزعة الرومنسية عند ابن الرومي ذلك الحزن الذي تولد نتيجة للإحباط والفشل في بلوغه إلى آماله عند المدوحين ولهذا نمت نبتة الحزن والتشاءوم واليأس في شعره. وهذه النزعة الرومنسية تتدفّق في ابداع الشاعر نغما حزينا وفكرا متشائما نتيجة المرارة والخيبة.
- التخييل - باعتباره أقوى ما يكون عند الرومنسيين - قويّ عند الشاعر ولا يقلّ درجة عمّا يكون عند الرومنسيين المعاصرين. وإذا قارنّا ما عند ابن الرومي من التخييلات التي توضّح لنا نفسية الشاعر وواقعية حياته ندرك مدى رومنسية الشاعر العبّاسي.
- إنّ الشعر العربي القديم بحاجة ماسّة إلى قراءات جديدة تواكب هذا الشعر مع المعطيات النقدية الجديدة مادام لم تخرج هذه القراءات عن جادة الصواب.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. ابن الرومي، علي بن العباس (١٩٧٤م). *الديوان*. تحقيق حسين نصار، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٢. ابن خلكان، أحمد بن محمّد (١٩٧٠م). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*. تحقيق إحسان عباس، ج٣، بيروت: دار صادر.

٣. أبوالشباب، واصف (١٩٨٨م). *القديم والجديد في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

٤. ايمانيان، حسين؛ شاملي، نصر الله؛ ايرواني زاده، عبدالغني (١٣٨٩). ***جامعه آرماني در مدائح؛ با نگاهي به مدائح ابن الرومي***. مجله انجمن ايراني زبان وادبيات عربي، العدد ١٧، صص١٥٩-١٨٣.

٥. باوره، موريس (١٣٧٣هـ). *تخيّل رمانتيك*. ترجمة فرشيد شيرازيان، مجلة ارغنون، العدد ٢، صص٥٥-٧٨.

٦. بلاطة، يوسف عيسى (١٩٦٠م). *الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث*. بيروت: دار الثقافة.

٧. الحاوي، إيليا (١٩٥٩م). ابن الرومي؛ *فنّه ونفسيّته من خلال شعره*. بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني.

٨. ـــــــــــ (١٩٩٨م). *الرومنسية في الشعر الغربي والعربي*. ط٣، بيروت: دار الثقافة.

٩. حسين، طه (١٩٧١م). *من تاريخ الأدب العربي*. ج٢، بيروت: دار العلم للملايين.

١٠. الحرّ، عبدالمجيد (١٩٩٢م). *ابن الرومي، عصره، حياته، نفسيته، فنّه من خلال شعره*. بيروت: دار الكتب العلمية.

١١. حطيط، كاظم (١٩٨٧م). *أعلام وروّاد في الأدب العربي*. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.

١٢. روشنفكر، كبرى؛ رحمت الله پاشا زانوسي (١٣٨٩هـ). *الطبيعة الحية في شعر ابن الرومي*. مجلة العلوم الإنسانية، العدد ١٣، صص ٧١- ٨٤.

١٣. سعفان، كامل (١٩٨٣م). *قراءة في ديوان ابن الرومي*. القاهرة: دار المعارف.

١٤. عباس، إحسان (١٩٥٥م). *فن الشعر*. ط٣، بيروت: دار الثقافة.

١٥. عصفور، جابر (١٩٩١م) *قراءة التراث النقدي*. القاهرة: مؤسسة عيبال للدراسة والنشر.

www.SID.ir

Archive of SID

١٦. العقاد، عباس محمود (٢٠٠٩م). ابن الرومي حياته من شعره. ط٢، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

١٧. فروخ، عمر (١٩٤٩م). *ابن الرومي، عليّ بن العبّاس بن جريح (دراسات قصيرة في الأدب والتأريخ والفلسفة)*. ط٢، بيروت: دار الكشاف.

١٨. فيصل، محمد روحي (١٣٦٥هـ). *المدرسة الرومنطيقية نشأتها وخصائصها ومكانها بين المدارس الأدبية*. مجلة الكتاب، السنة الأولى، الجزء ١١، صص٧٤١-٧٥٢.

١٩. كبريت، سمير محمد (٢٠٠١م). *روائع الشعر العربي (ابن الرومي)*. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٠. هلال، محمد غنيمي (دون تا). *الرومنتيكية*. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢١. ولك، رنه (١٣٧٣هـ). *رمانتيسم در ادبيات*. ترجمة اميرحسين رنجبر، مجله ارغنون، العدد ٢، صص١٩-٤٦.

www.SID.ir